المـمارسة الصوفية في عصر العولمة
بين رهان التجديد وسؤال الهوية

د. عادل بن منصور

تطوان- المملكة المغربية

كان التصوف ولازال روح الدين وأساسه المتين، وقد أصبح في عصرنا الحاضر، مع تزايد انشغالات البشر وإهمالهم للجانب الروحي، ضرورة ملحة في حياتنا. ولا نتحدث هنا عن كونه ضرورة فردية لإشباع البعد الروحي في ذواتنا فحسب، بل ضرورة مجتمعية تكاد تكون الحل الأمثل للعديد من الظواهر التي أصبحت تنخر مجتمعات برمتها، سواء على مستوى الفكر أو على مستوى الممارسة.

إلا أن حديثنا عن الممارسة الصوفية كبديل روحي هو حديث عن التصوف السني الحق، دون خلطه بما شاب أفكار وممارسات بعض التيارات الصوفية من انزلاق فكري وانحراف عقدي، كان للعولمة بكل أشكالها وأنماطها حصة الأسد في توجيهها. فالأكيد أن للعولمة الثقافية والفكرية تأثيراتها، كما للنظريات الاقتصادية النفعية تأثيرات أخرى، ناهيك عن بعض المقاربات السياسية التي أرخت بظلالها على العديد من الطرق الصوفية، محاولة دمجها بشكل أو بآخر في النظام السياسي العالمي.

ومن هذه المنطلقات تُطرح العديد من التساؤلات حول وضعية الممارسة الصوفية في ظل نظام عالمي سمتُه العولمة الشاملة، بكل ما تتميز به هذه الأخيرة من "سرعة تدفق المعلومات والأخبار والسلع ورؤوس الأموال والخدمات والبشر من مكان لمكان آخر في العالم بغير حدود ولا قيود"[1].

فهل تمكن التصوف السني الحق من الحفاظ على هويته العربية الإسلامية بكل مقوماتها الدينية والروحية؟

– هل التحقت كل الطرق الصوفية بقطار العولمة؟

. هل يمكن للصوفية أن يعيشوا تحت شعار النمط الواحد فكرا وممارسة وفقا لمخططات رواد العولمة؟

وهل تعني عصرنة المناهج والممارسات الصوفية واعتمادها التقنيات والوسائل الحديثة للاتصال والتواصل القضاء على الهوية والخصوصيات الثقافية والدينية للتصوف؟

1- تحولات الأمم المستقبل العالمي، السيد ياسين، دار نهضة مصر، القاهرة، 2010: ص 215.

إن المتأمل في ما يتميز به هذا العصر من التناقض والمفارقات الشاسعة في كل المجالات، ليجد صعوبة في التمييز بين الإيجابي والسلبي، وبين الحقيقة والزيف وبين الفكر البناء والفكر الهدام، بالنظر إلى التداخل الكبير بين عدة عناصر متشابكة.

فدراسة التصوف فكرا وممارسة هو دراسة لظاهرة أصبحت بفعل عدة عوامل ظاهرة عالمية، تحولت طقوسها وممارساتها من شكلها الفردي الهادف إلى التقرب إلى الله والتجرد من ملذات الحياة، إلى شكل جماعي متمثل في تيارات ومدارس فكرية وطرق صوفية لها مقوماتها وأسسها الخاصة. مما يعني أن دراسة التصوف في وقتنا الحاضر، لا يمكن أن يكون في معزل عن دراسة ظاهرة تتجه نحو العالمية بكل مقوماتها، مؤدية ضريبة التأثيرات الحضارية والفكرية للعولمة بكل تجلياتها.

ولعل الباحث في ما عرفته الطرق الصوفية من تطورات يتضح له جليا مدى تأثير العولمة على هذه الطرق، إن على مستوى الأفكار والممارسات أو على مستوى السبل والوسائل المعتمدة للتوسع والانتشار. فقد اتجهت الطرق الصوفية خلال القرنين الأخيرين إلى التوسع عبر مختلف بقاع العالم بالاعتماد على كل الأدوات والاستراتيجيات والوسائل المتاحة. إذ شهد القرن التاسع عشر بلوغَ الصوفية ذروةَ التوسُّع الاجتماعي في تاريخهم، حيث ساهم انتشار الوسائل الحديثة للطباعة في الرفع من صبيب نشر الكتب والمؤلفات الصوفية وترجمتها وانتشارها على نطاق واسع. وقد "مثِّل ذلك تحوُّلًا في وسائل نقل المعرفة الصوفية من الأنماط القديمة المرتكزة على التلقين والتداول المحكم للمخطوطات"[2]، إلى التفاعل المباشر مع الكتاب وسبر أغواره وثناياه.

إلى جانب ذلك ساهمت التقنيات الحديثة مثل تطور وسائل السفر ووسائل الاتصال والتواصل في الرفع من مستوى انتشار الطرق الصوفية، فقد أدى هذا التطور إضافة إلى المنافسة العالمية في مجال النقل إلى تيسير سبل وصول العديد من الصوفية إلى كل

2 – الصوفية: نشأتها وتاريخها، نايل جرين، ترجمة صفية مختار، مراجعة مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، 2017. ص: 221.

بقاع العالم وتأسيسهم لفروع للزوايا الأم، والرفع إثر ذلك من نسب تدفق الصوفية من مشايخ ومريدين لحضور المواسم والملتقيات والمؤتمرات الدينية. ولعل المؤتمر العالمي للتصوف الذي تنظمه الطريقة البودشيشية سنويا بمداغ ناحية مدينة بركان المغربية لمثال من بين عدة أمثلة على مدى إسهام تطور وسائل النقل والمنافسة العالمية في هذا المجال، في انتشار التصوف، إذ بلغ هذا المؤتمر دورته الرابعة عشرة سنة 2019، بحضور ما يناهز 120 من المشايخ والعلماء والباحثين، إضافة إلى عدد كبير من المريدين الذين يحجون سنويا لحضور المؤتمر من عدة دول من العالم[3].

وقد أصبح تنظيم المؤتمرات والملتقيات الصوفية ظاهرة تستحق التأمل والدراسة والتمحيص، إذ اتجهت معظم الطرق الصوفية لتنظيم مؤتمرات دولية سنوية لجمع مريديها وتلقينهم الأسس الفكرية والمنهجية المعتمدة لديها، فبالإضافة إلى مؤتمر مداغ السالف الذكر نجد على سبيل المثال المؤتمر الدولي للتصوف الإسلامي الذي ينظم بالعراق، والمؤتمر العالمي لعلماء المسلمين المعروف بمؤتمر الشيشان، والمؤتمر الصوفي السنوي العام الذي ينظم بمصر وغيرها من الملتقيات والمؤتمرات الصوفية.

وإذا كان هذا التوجه يُبرز من ناحية مدى اندماج الطرق الصوفية في سوق العولمة الشامل وتأثرها بمحيطها المعاصر، فإنه من ناحية أخرى يُبرز قدرة هذه الطرق على مواكبة العصر ومسايرة المستجدات العالمية. وبين منتقد لهذا التوجه معتبرا إياه توجها غير محسوب العواقب وانغماسا مفرطا في مظاهر العولمة، وبين مساند يرى أن ذلك مطلوب لنشر ثقافة التصوف على أوسع نطاق، تبقى أهداف هذه الطرق ومدى التزامها بالضوابط الشرعية والغايات الفضلى للممارسة الصوفية خير حكم على ما تشهده الساحة الصوفية العالمية.

---

3 – مداغ ببركان تتحول إلى قبلة لأهل التصوف في ملتقاهم العالمي 14، عن موقع أنفاس بريس، بتاريخ 28-06-2020.

إن تطور الممارسة الصوفية في بعدها العالمي، وفي ظل التأثيرات القوية للعولمة، يجعل الحديث عن مسألة الأهداف المعلنة منها والخفية، أمرا بالغ الأهمية في الحكم على مدى حفاظ هذا التيار أو ذاك، على الهوية العربية والإسلامية بكل تجلياتها الأصيلة المرتبطة بأسس التصوف الحق المنبثق عن الإسلام الصحيح المرتكز على الكتاب والسنة كمصدرين أساسيين للتشريع الشامل لكل مناحي حياة المسلم.

ولعل الحديث عن الأهداف يحيلنا على مسار تطور الطرق الصوفية في العقود الأخيرة، وخاصة خلال فترات الاستعمار. إذ كان لمظاهر العولمة السياسية وتبعاتها الاقتصادية، أثر لا يستهان به على الحركة الصوفية عبر العالم. فإذا كان انتشار الوسائل الحديثة للطباعة، كما أشرنا سابقا، سبيلا لنشر المعرفة الصوفية على أوسع نطاق، فإن البعض قد اعتمده أسلوبا لمناهضة الاستعمار، فيما اعتمده المستعمر لاستغلال بعض الجماعات الدينية لأهداف سياسية محضة. إذ جسدت العديد من الكتب الصوفية ذلك "التفاعُل المعقَّد بين الصوفيين المناهِضين للاستعمار، والفُرَص الجديدة التي أتاحها الحكمُ الاستعماري للجماعات الدينية"[4]. فيما اتجهت فئة أخرى إلى مقاربة عملية نشر الكتاب الصوفي مقاربة نفعية براجماتية، تجعل من عملية نشر الكتاب الصوفي وبيعه على نطاق واسع سواء باللغة العربية أو من خلال ترجمته، عملية اقتصادية محضة لا تستحضر الهاجس الفكري أو الدعوي. فقد استفاد الصوفية من هذا التطور واستغلوا هذه التقنيات الصناعية، التي أتاحت لهم فُرَصًا جديدة لوصول تعاليم الصوفيين إلى جماهير جديدة بلُغات جديدة، (...) إلا أن الصوفيين المندمجين، أمثال إدريس شاه، والصوفي الإنجليزي المقيم في كاليفورنيا لويلين فون لي (١٩٥٣–...)، كانوا هم الأكثر كفاءةً في دخول سوق النشر التجاري".[5]

---

4 – الصوفية : نشأتها وتاريخها، ص: 222.

5 – نفسه ص: 264، نقلا عن Hermansen, “Literary Productions of Western Sufi Movements,” in Malik & Hinnells (2006).

وإلى جانب المظاهر السياسية والاقتصادية للعولمة، فإن تطور الحركة الثقافية الغربية واهتمامها أكثر فأكثر بالفكر الصوفي ودراسته، واتجاه الطرق الصوفية بدورها إلى التوسع بالعديد من الدول الغربية، كل ذلك سينعكس على مفهوم التصوف ذاته، ليجعل منه مفهوما متعدد الدلالات، مختلف المعاني. فقد عرف القرن العشرين اهتماما بالغا للمستشرقين بدراسة التصوف مصطلحا وفكرا وممارسة. إذ كتب "آربري" كتابا بعنوان An introduction of the history of sufism، نشر سنة 1942، كما نشرت آن ماري شميل سنة 1974 كتابا بعنوان Mystical dimension of Islam، كما صدر سنة 1973 كتاب بعنوان studies in early mysticism in Near and middle East للمستشرقة مارغريت سميت.

إلا أن الدارس لهذه الكتب، يتضح له مدى انزلاق هؤلاء وراء مفاهيم فكرية هي مزيج من التصوف وأشياء أخرى، فقد اختلف معنى مصطلح «التصوف» لدى الباحثين الأوروبيون، إذ اكتسَبَ في نقاشاتهم معان كثيرة تعارضت في أحيان عديدة مع فهم الصوفيين، فنجد العديد من هؤلاء لم يتمكن من ضبط المصطلح اللاتيني المقابل لمصطلح التصوف، بما يجعله محافظا في ثناياه على الهوية الإسلامية فكرا وممارسة، ملتزما بدلالته العربية. فمن الباحثين من قابل مصطلح التصوف بلفظ soufisme ومنهم من قابله بمصطلح mysticisme، ومنهم من استعمل المصطلحين بمعنى واحد دون إدراك لخصوصية التجربة الصوفية في الإسلام[6].

ولعل هذا الاختلاف المصطلحي أرخى بظلاله على الدلالة الفعلية للتصوف، إذ جعله بعض الدارسين دالا على التصوف في كل الأديان دون اقتصاره على الإسلام، وفي ذلك يقول الشيخ محمد بشير: "نريد أن نسجل للعلم والإنصاف أن التعصب لاسم "التصوف" والحرص على الاحتفاظ به ليس له ما يبرره، خصوصا إذا ما ثبت أنه سبقتنا

6 – انظر كتابنا "الرهبنة المسيحية والتصوف الإسلامي، دار صفحات للنشر والكتاب، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2016، ص:200.

بالتسمي به متصوفة الرهبان من النصارى والبوذيين وغيرهم من ملل الكفر"[7]. كما ذهب البعض إلى ربط الممارسات الصوفية في الإسلام بنظيرتها في المسيحية، من خلال "ربط مصطلح التصوف بما عرف في التراث المسيحي mustikos الذي يدل على المعاني الخفية المستورة وراء ظواهر النصوص الكتابية، بزعم أن لكل النصوص معان ظاهرة واضحة ومباشرة وأخرى خفية مستورة، وأن على الصوفي ألا يقنع بالمعاني الظاهرة، بل يجاوزها إلى التماس المعاني المستورة للنص. وهو أمر يلاحظ لدى صوفية الإسلام أيضا"[8].

كل هذه المعاني والدلالات وغيرها مما احتوته كتب ومؤلفات الغرب، أدت إلى ظهور تيارين من الصوفية. إذ بعد ازدهار حركة الترجمة، وتطور الطباعة بدأ المسلمون يَتعرفون كنه الكتابات الأوروبية عن الصوفية والتصوف "فأصِيب من أخذوا فهْمَ الأوروبيين بجدِّيَّة بصدمةٍ من مُبالَغات الصوفيين، في حين غضب الذين نظروا بعين الرِّيبة إلى الخِبرة الأوروبية من إساءةِ تفسيرِ رُوح التعليم الصوفي"[9]. فقد أدرك الدارسون بتمعن للفكر الصوفي في الغرب والدراسات الغربية المتعلقة به مدى انزلاق الدراسات الغربية إلى تشويه صورة التصوف الحق، من خلال التركيز على ما أصابه فكرا أو ممارسة من خلل فكري أو عقدي نابع من عناصر دخيلة. تلك العناصر التي جعلتها الأبحاث والدراسات الاستشراقية حجر الزاوية في بحث موضوع التصوف، بغية جعله آلية لخدمة الأجندة الاستعمارية ومخططات رواد العولمة، إذ "اتجهت إلى اعتبار الممارسات الصوفية مجرد نسج خيال من مخلفات العصور القديمة (...) فبالمنظور النفعي للعولمة يتم الترحيب

7 – التصوف بين الإفراط والتفريط، عمر عبد الله كامل، دار ابن حزم، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2001، ص: 50.

8 – في التصوف المقارن: ملاحظات منهجية، عرفان عبد الحميد فتاح، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 36، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004، ص: 14.

9 – الصوفية: نشأتها وتاريخها، ص: 249.

فقط بالمفاهيم الصوفية على أنها مادة هزلية لإثارة الضحك بل ومن نفس المنظور النفعي أيضًا تعد المزاعم الصوفية في قدرتها على تسخير الطبيعة كمهدد للتقدم العلمي ذاته "[10].

إن هذا التحريف لمعنى التصوف ودلالته، يجعلنا نتساءل عن وضع التصوف الإسلامي بالبلاد الغربية ومدى استيعاب معتنقيه لخصائصه وأبعاده، دون تحريف أو تزييف يخرجه من بوتقة الإسلام فكرا وممارسة، ولا يجعل له روابط غير تلك اللغوية المرتبطة بالعربية كلغة للقرآن، باعتباره كتاب دين.

وفي هذا السياق، نجد أن النصف الثاني من القرن العشرين شهد اهتمامًا متزايدًا بالتصوف في الغرب، إذ "تمكن الإسلام من الانتشار في أماكن جديدة من العالم عن طريق التصوف وبشكل كبير، حيث أظهر المسلمون المتصوفة قدرة مرنة على التكيف والاندماج في تلك المناطق".[11] ومع دنوِّ القرن العشرين من نهايته ظهَرتْ أشكالٌ جديدة من الصوفية في بلدان أوروبا وأمريكا الشمالية، حقَّقتْ تفاعلًا وتداوُلًا متزايدًا مع المناطق الإسلامية الأخرى. ولعل من مظاهر تكيف الصوفية مع الثقافة الغربية ومتطلبات العولمة، ما أصبحنا نشاهده اليوم من تقديم لتعاليم الصوفية من خلال استعمال التكنولوجيات الحديثة من فيديوهات وأشرطة وبرامج لعرض الشرائح واعتماد الملصقات واللافتات والعروض الإشهارية والإعلانات لجل المؤتمرات والمنتديات، واعتماد المواقع والمجلات الالكترونية وصفحات التواصل الاجتماعي للعديد من الطرق الصوفية، دون أن نغفل تطور الزي الصوفي ذاته ليواكب حداثة العصر، إذ أصبحنا نشاهد خلال "تسعينيات القرن العشرين تعاليم الصوفية متاحةً من خلال العروض التقديمية المُعتمِدة على برامج عرض الشرائح، التي يقدِّمها صوفيون يَرتدون بذلات، ويؤكِّدون على حداثةِ

10 – هل تقضي العولمة على الصوفية؟، محمد إبراهيم مبروك، مجلة البيان، عدد282 ، مركز البيان للبحوث والدراسات، يناير 2011، الكويت.

11 Divid Westerlund, “The Contextualisation of Sufism in Europe”, in Sufism in Europe and North America edit : David Westerlund -2004 – Routledge Curson – London &New York , p:16.

تعاليمهم من خلال استخدامِ مصطلحاتٍ مثل «الصوفية الجديدة» و«الصوفية العملية» و«التصوف الإيجابي»"[12].

ورغم ما قد تتيحه هذه التقنيات من إمكانات لنشر ثقافة التصوف باعتباره سلوكا فكريا وعمليا، إلا أن الصوفية أنفسهم مطالبون بالوقوف أمام آلة العولمة التي أصبحت تسحق كل فكر معارض، بغية خدمة أهداف معينة لا تمت للدين بصلة. فالعالم الإسلامي عموما مطالب قبل أي وقت مضى، بالإعداد الجيد والمحكم لكل مظاهر التجديد أو الانفتاح، بحيث لا ينجذب للمظاهر الفاتنة للعولمة وما تسوق له من عناصر مزخرفة في ظاهرها، مسمومة في باطنها، لأن ذلك يهدد خصوصيات الهوية العربية والإسلامية للفكر والممارسة الصوفيين. إذ أن "الخطاب الصوفي المعاصر يجب أن يتجدد برؤية معاصرة تضخ في شرايين المصطلح الصوفي دماء جديدة وروح تنبض بالحيوية الدافقة"[13]، دون أن يتيه في دروب العولمة الثقافية تحت مسمى التصوف الكوني أو الثقافة العالمية. فالدعوة الإسلامية في أصلها دعوة عالمية موجهة للناس أجمعين دون تفرقة بين الأجناس والألوان واللغات، والتصوف هو روح الإسلام، ولم يكن أبدا دروشة ولا سلبية ولا خمولا أو انعزالا، ولكنه كمال خلقي وروحي ومعرفي وتعبدي محض، فهو ارتقاء في معارج التقدم المادي والروحي، الذي يهدف إلى إصلاح النفوس والأفراد ابتغاء إسعادهم وإصلاحهم.

لذا فإن أي خطاب للتجديد أو مواكبة للعصر، يقتضي استحضار قضية الحفاظ على الهوية الثقافية الإسلامية في ظل الزخم المتزايد من العادات والقيم والمفاهيم المشوهة التي تجتاح العالم على غطاء العولمة. إذ يقول ابن عطاء الله السكندري، أحد رموز التصوف بالمشرق، في هذا الصدد: "وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد، أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في

---

12 – الصوفية: نشأتها وتاريخها، ص: 252

13 – عن الشيخ زكريا محمد مرزوق، من جامعة الأزهر بمصر، تقرير عن الملتقى العالمي للتصوف بمداغ، موقع الحدث. https://ahdath.info/

خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينْتهِ عما نهى عنه وزجر". ولعل في هذا القول عبرة لكل من يريد اتباع طريق التصوف دون زيغ أو انحراف أو تشبه أو تقليد.

المراجع:

1. تحولات الأمم المستقبل العالمي، السيد ياسين، دار نهضة مصر، القاهرة، 2010: ص 215.
2. الصوفية: نشأتها وتاريخها، نايل جرين، ترجمة صفية مختار، مراجعة مصطفى محمد فؤاد، مؤسسة هنداوي، 2017. ص: 221.
3. الرهبنة المسيحية والتصوف الإسلامي، عادل بنمنصور، دار صفحات للنشر والكتاب، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2016، ص:200.
4. التصوف بين الإفراط والتفريط، عمر عبد الله كامل، دار ابن حزم، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2001، ص: 50.
5. في التصوف المقارن: ملاحظات منهجية، عرفان عبد الحميد فتاح، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 36، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، 2004، ص: 14.
6. هل تقضي العولمة على الصوفية؟، محمد إبراهيم مبروك، مجلة البيان، عدد282 ، مركز البيان للبحوث والدراسات، يناير 2011، الكويت.
7. Divid Westerlund, “The Contextualisation of Sufism in Europe”, in Sufism in Europe and North America edit : David Westerlund -2004 – Routledge Curson – London &New York , p:16.
8. موقع أنفاس بريس. https://anfaspress.com

موقع الحدث:https://ahdath.info